

# العِلْمُ بِأَمْرِ وَالْيَوْمِ

## علم النفس

وجهاتٍ اربع اتجه اليها علم النفس في القرن التاسع عشر : الوجهة الاولى وصف مجرى الشعور وصفاً كاملاً على قدر المستطاع . والوجهة الثانية هي تحليل هذا المجرى ( بعد ان يكون قد درس درساً ذاتياً ) وارجاعه الى وِحدٍ اساسية شأنها شأن الجواهر الفردة في العلوم الطبيعية . اما الوجهة الثالثة فهي تفسير هذا المجرى وتركيبه كما تعينها وتحددها هذه الوحد المفروضة . والوجهة الرابعة هي ايجاد الصلة بين كل وحدة من هذه الوحد العقلية — وان شئت هذه الجواهر الفردة — وبين ما يجري من فعل في قسم من نسيج عصبي عُرِف تركيبه ومركزه من الدماغ . ولما كانوا يعتبرون الدماغ مجموعة من مجاري الافعال المنعكسة وسلاسل من الخلايا العصبية تتشابك وتتداخل صانعة عدداً عظيماً من المسالك بين اعضاء الحس والعضلات ، كانوا يؤملون ان يهتدوا الى تفسير جميع الاعمال التي يقوم بها المرء على انها تغيرات طبيعية كياوية ترافق مجاري الاعمال المنعكسة هذه . وهكذا كان علم النفس في القرن التاسع عشر يميل ميلاً شديداً الى تفسير مظاهر النشاط الانساني تفسيراً ميكانيكياً محضاً . وقد عرفت هذه النزعة في اميركا واوروبا باسم السلوكية او تفسير ظواهر النفس على انها مجموعة من الافعال المنعكسة لمؤثرات مختلفة معينة

والذين ينحون هذا النحو من التفكير لا يزال عددهم كبيراً. غير انه ظهر لهم خصوم كثيرون، من نواح مختلفة ، واخذوا يناصبون هذه الاتجاهات والنتائج التي تنتج عنها، العداء الشديد. وآخر سهم صوّب نحوها جاء من ناحية الباحثين في الاعمال العقلية ووظائف الدماغ. فقد اورد هؤلاء ادلة واثباتات عديدة على ان اعمال الدماغ لا يمكن تحليلها الى وحدات اساسية ترتبط كل منها بوحد تشريحية تكلية عصبية مثلاً ، او سلسلة من الخلايا العصبية. بل على الضد من ذلك ظهر من مباحث هؤلاء ان ما يجري في الدماغ من عمل معين هو مظهر من مظاهر عمل الدماغ العام او هو حالة من حالات التغيرات العصبية بدلاً من ان يكون مجرد مجموعة من الافعال تجري في مجاميع متخصصة من عناصر الدماغ ومثل التأثير الذي احده الباحثون في اعمال الدماغ التأثير الذي كان لا يحاب علم النفس

يحسبها ذات تأثير عظيم في النموذج  
السيكولوجي الطبيعي وهذا التأثير يزداد مع  
التطور والنشوء  
أما من جانب العلوم الاجتماعية فالاعتراض

النموذجي<sup>(١)</sup> (Gestalt Psychology)  
فقد اثبت هؤلاء في مباحثهم ان فكرة الرجوع  
الى وحد اساسية في وصف مجرى الشعور  
وتفسيره هي فكرة مضللة ، وان هذا المجرى

على علم النفس ووجوب  
تغييره تغييراً اساسياً عظيم  
جداً . فالمشتغلون بالعلوم  
الاجتماعية كانوا من قديم  
يرجون ان يضع علم النفس  
في ايديهم وسائل فعالة تعينهم  
في مباحثهم . و لكن هذه  
الآمال أرجىء تحقيقها  
مما آلمهم غاية الايلام .  
فوجدوا ان علم النفس  
باصطباغه بصفة ميكانيكية  
قوية عاجز عن ان يمكنهم  
من الوسائل التي بها وحدها  
يستطيعون ان يرسموا صورة  
صادقة للطبيعة البشرية في  
جميع ملبساتها الاجتماعية .

### العلم : أمس واليوم

ليس الغرض من هذه السلسلة  
تناول الحقائق الجديدة التي  
كشفت عنها الباحثون في مختلف  
العلوم . وانما الغرض بسط  
الاتجاهات الفلسفية فيها . وقد  
مر بنا مقالان تدور احدهما  
على الاسلوب العلمي والثانية  
على علم الطبيعة وهذه المقالة  
تدور على علم النفس وهي للاستاذ  
مكدوغل . وفي الاعداد التالية  
مقالات تتناول كل منها :

علم البلورات  
علوم الاحياء  
علم الاجتماع

لا يمكن ان يوصف وصفاً  
صادقاً بأنه مجموعة من  
العناصر المستقلة، بل الاصح  
ان يوصف بأنه نموذج او  
شكل كل عنصر من عناصره  
يؤثر في بقية العناصر  
الاخرى ويتأثر بدوره بها  
ومبدأ النزوع ، وهو  
في الاصل مبدأ التطور  
العضوي ، له عين التأثير  
السابق ايضاً . فهو يحتم ان  
عملاً من الاعمال يجريه  
العضو، اذا جمع الى غيره ،  
جاء بنتيجة جديدة ، لم يكن  
تمة سييل الى التكنن بطبيعتها .  
وهذا المبدأ يذهب الى ان

وفي خلال الفترة التي كان علم النفس يتطور  
فيها ليصبح صالحاً لخدمة الاغراض الاجتماعية  
كانت هذه العلوم ذاتها تشتغل معتمدة على  
الفروض النفسية التي كانت تدور على السنة

مثل هذا الجمع بين اعمال العضو يأتي بنتيجة  
جديدة مبتكرة وهو يعتبر ان الاعمال الشعورية  
ليست اموراً تصحب التغيرات الطبيعية الكيماوية  
في الدماغ من دون ان يكون لها تأثير، بل هو

(١) اخترنا كلمة « نموذج » ترجمة لكلمة « gestalt » الالمانية . وهي ترجمة حرفية لهذا اللفظ  
الذي اصبح يدل في الاوساط العلمية على الاتجاه الاخير في علم النفس . فعلماء النفس اليوم يذهبون الى  
ان ظواهر النفس اعقد مما كان يظن ، وان مؤثراً او اكثر اذا أثر في الكائن العضوي آتى بنتيجة لم  
تكن بالحسبان . ذلك ان هذا المؤثر لا يمكن عزله عن غيره بالرة . فتكون نتيجة التأثير الحاصل من تفاعل  
هذا المؤثر مع غيره ، على حد تعبير الكيماويين ، غير النتيجة التي لذلك المؤثر وحده

الجمهور وفي تضاعف كلامهم والتي كانت تحوّل او يضاف اليها ما يجعلها صالحة ملائمة لفرض المشتغلين بها من علماء الاجتماع . ولكن قام حديثاً نفرٌ من علماء الاجتماع في المانيا وأخذوا ينعون على علم النفس تقدمه البطيء وسيره على اسلوب مدرسي متحدياً بهذا العلوم الطبيعية . وهم يقترحون ان يدعوا هذه النزعة المدرسية تسير في سبيلها ما شاءت متخذة لها اسم السيكولوجيا العلمية المحضة ، ويكونوا لانفسهم علم نفس جديد يدعونه « سيكولوجيا العلوم العقلية » . . . الا انا لا نستطيع ان نسينغ طويلاً انشقاق علم النفس هكذا الى فرعين متميزين كل التمايز . حقا ان علماء الاجتماع محقون في رفضهم هذه السيكولوجيا المدرسية وماجرت عليه من قوانين خاطئة واتجهت اليه من اهداف زائفة . ولكن الدواء لا يكون بأن ينشأ علما يبحثنان في الطبيعة الانسانية ويجريان على قوانين مختلفة اختلافاً شديداً . اما الدواء يكون باصلاح علم النفس ذاته

\*\*\*

ومما يسهل هذا الاصلاح المنشود ويمهد السبيل اليه التطورات الحديثة في العلوم الطبيعية . فانقضاء عهد مادية الجواهر الفردة (الذرات) ، وتنبه العقول الى استحالة دراسة جميع الظواهر الطبيعية دراسة بالغة من الدقة حتى في عالم الكائنات الآلية ، وتلاشي الميل الى وضع حدود فاصلة بين المادة والقوة ، وازدياد الميل الى النظر للحوادث — باعتبار الحادثة event المكونة من زمان ومكان حقائق العلم الاساسية — بانقضاء هذا العهد خف الانتقاد القديم لفكرة السببية والمسببية في الظواهر النفسية . وقد كان هذا الانتقاد ، فيما مضى ، مقنماً للغاية ، ولكنه الآن فقد هذه القدرة على الاقناع . ونحن مع هذا ، نظل احراراً في ان نعتقد ان الاعمال النفسية تمت الى العلوم الطبيعية اكثر مما تمت الى مباحث وراء الطبيعة التي لا تركز على اساس علمي في هذه الاحوال المواتية قام علماء النفس الذين لم يرضوا قط ان ينسجوا على منوال علماء الطبيعة في مباحثهم ولم يقبلوا قط النزعات الميكانيكية التي كانت سائدة بالامس ، فلفتوا اليهم الانظار واسترعوا الأسماع . وهم يميلون الى الرجوع الى تعاليم ارسطو من حيث علاقة الظواهر النفسية بالمادة ضارين صفحاً عن النفسي (the psychic) في عالم الطبيعة حاسينهُ نمواً غير طبيعي في اثناء ارتقاء العلوم الطبيعية غير المنسق . متخذين وحدة الكائن الحي ووظائف اعضائه قاعدة لمباحثهم . وعلى الرغم من ان مجرد التسليم بوحدة الجانب الطبيعي والجانب النفسي من الحياة ، يكفي لاصلاح علم النفس القديم ، فان نفرأ من الباحثين يقبلون على فلسفة ارسطو بكليتهم محتمين الاخذ بفكرة القصد التي تعتبر ان كل عمل من اعمال الجسم له هدف وغاية يسعى اليها . فتراهم يعتقدون ان اعمال الجسم المرتقية والتي تجري

دون شك ، نحو غاية معينة هي نتيجة للتطور من دوافع غامضة نفسانية نحو اهداف معينة وهذه الخاصة تبدو للعيان حتى في سلوك الاحياء المنحطة . وهم يرون ان تحت هذه المظاهر من النشاط النفسي التي نستطيع ان نفحصها وتأملها بذواتنا اموراً غامضة كثيرة هي الاس الذي ترتكز عليه شخصياتنا . هذه الامور الغامضة غير المميزة التي تجري في الكائن الحي اخذت تسترعي الانظار في السنوات الاخيرة متخذة اسما مختلفة : كاللاشعور وما تحت الشعور والنفس المتسامية [Subliminal self]

\*\*\*

وبين المؤثرات التي تفسر الناس على اعتبار هذا الاساس القسدي للشخصية ، المباحث التي قام بها فرويد ومدارس التحليل النفسي المختلفة التي استمدت من مباحثه في الاضطرابات العصبية الشيء الكثير . وتأثير فرويد في التفكير العلمي والعادي لا ينحصر في ان كثيراً من تعاليمه غريب مثير للاحساس انما تأثيره قائم على انه طالج الحقائق والمسائل المرتبطة بالاضطرابات العصبية بفكر خالٍ من النظريات المدرسية والتعنت في وجوب الوضوح وعدم التناقض . فاستطاع بمقدرته الفائقة ونفوذ بصره ان يوفق بين نظرياته والحقائق التي هداه اليها البحث . حقا ان تعاليم فرويد ، بمن التف حولها من اناس اخذت منهم الحماسة مأخذها اصطفت بصبغة الغموض وأخذ الناس يلقنونها دون بحث او تمحيص فالتصق بها كثير من الاخطاء والمبالغات . ولكن على الرغم من هذه الهنات لا يشك قط بان تاريخ الفكر الحديث سيحتفظ لفرويد بمكان عظيم في صدره ، لانه استطاع اكثر من اي شخص آخر ، ان يرغم الناس على العناية بما لهذه الاسس العميقة الغنية من اثر في حياتنا العقلية ، ولانه ابتدع اساليب للكشف عن تلك الاعماق واخصها اسلوب تحليل الاحلام ان زعماء علم النفس المدرسي في الوقت الحاضر يحاولون تمثيل احسن ما في تعاليم فرويد خصوصاً ما يتعلق منها بمسائل الكبت والنزاع النفسي Conflict تحت الشعوري . ولما كانت هذه المبادئ هي في الحد الاقصى من الغائية teleology فان اصحاب الطريقة المدرسية في علم النفس يقبلون عليها بحذر كلي . ولذا فعملية التمثيل الآنفه تجري ببطء بين اصحاب النزعات الميكانيكية

هذا التحول العظيم في علم النفس في الوقت الحاضر يستطاع تلخيصه في جملة واحدة : ان علماء النفس في الامس كانوا يقسرون حقائقهم على مطابقة النظريات السائدة في العلوم الطبيعية . اما اليوم فهم يجروُن على جمع الحقائق ، بعقول متيقظة خالية من الغرض ، وصوغ النظريات لترافق هذه الحقائق